

— اللغة والمصر —

(تابع لما في الجزء السابق)

وهما يكن من امر هذا المجتمع قد مضى على وجهه ودرجت بعده
الايام ودبت الليالي والحاجة في مكانها والرغبات متطالة والخواطر هائجة والاقلام
جافة واللغة على ما كان من عهدا لم تستغنِ بتلك الكلمات العشرين ولا وُجد
بعد ذلك من أجرى لها ذكراً ولا أخطر للنظر في امرها فكراً فكان ذلك
المجتمع انما عُدّ لثيظ العزائم عن نهضتها وقطع آخر عرق من الامل وكان
اربابه قُرّ من الاطباء اجتمعوا للانثار على عليل فكان قصارى ما في طبهم أن
قضوا بالياس منه ثم خرجوا وهم يقولون عظم الله اجركم في الفقيد

فبقي الآن إما أن نُسجل بموت اللغة وموت الآمال معها والياس
إحدى القنيتين وإما أن نستأنف العزم ونجدد السعي في احياء ما اندثر منها
وتدارك ما طرأ عليها من الثلم وهو ما لا تزال الآمال فيه منوطة بهم رجال
هذا القطر ان نشيطوا له وافرغوا للاشتغال به وتنهبوا لمكان اللغة من الأمة
وأنها هي عنوانها والفصل الذي تميز به من سائر الأمم بل اللغة هي الأمة
بعينها فكما تشخص تاريخها وعلومها وعاداتها وعباداتها فانها تشخص الأمة بنفسها
وبها يشار اليها ويدلّ عليها وذلك فضلاً عن أنها هي مجمع ألفتها والوصلة الحية
بين آحادها وجماعاتها فهي علة الضم الحقيقية بينها والجامعة الطبيعية التي بها
يستتب معنى المدينة واذا تقطعت للمراد من قولهم الانسان مدني بالطبع شَفَّ
لك عن حقيقة هذا القول وتبينت موضع اللغة من الحالة الاجتماعية . واعتبر
ذلك في الأمم الاوربية لهذا العهد فانها على اتحاد أكثرها في النحلة الدينية وما

يصل بينها من لحمه النسب انما تميز الجنسية عندها باللغة وهي الفصل الفارق بين أمة وأمة وعليها مدار الوحدة الوطنية وصيانة المصلحة الأُمّية وما لم تجد الأُمّتان منها في اللغة لا يؤمن انتقاض احدهما على الاخرى ولو اتحدت بينهما المصلحة الوطنية والجامعة السياسية . بل انظر الى الناطقين بلساننا العربي فانهم على تباينهم في الأنساب والأديان والعوائد الى ما لا تجد له مثيلاً في العالم كله وعلى ما بينهم من اختلاف الحال السياسية وتفاوت المصالح الذاتية وتضافر دواعي الشقاق والافتراق لم تثبت لهم جامعة يضمون بها ويتألفون حولها سوى اللغة حتى لقد تجد من الدخلاء فيها من هو اشدّ اعتصاماً بها ومحافظةً عليها من ورثها عن أوليائه وانتهت اليه عن غير كلاله

بل عندنا اليوم ما هو ابلغ من ذلك وهو ما نراه من كثير من فتياننا الذين يتلقون العلم في المدارس الاجنبية فانك تجد كل فريق منهم قد أُشرب الميل الى الأمة التي يدرس في لسانها فمن تعلم في المدارس الانكليزية مثلاً خرج ميله انكليزياً وكذا من درس في المدارس الفرنسية او الطليانية او غيرها حتى تراه يباهي برجال تلك الأمة ويتبجح باخبار ملوكها وكبرائها وفضائل اهل العلم والشعر منها ويقتبس كثيراً من اخلاقها وعاداتها ويتشبه بمشاهير اهلها ومن يقع في نفسه منها موقماً وربما أُشرب عقائد بعض علمائها وفلاسفتها الى غير ذلك مما لا تكاد تفرقه فيه عن احد افرادها بل ربما بلغ من بعضهم ان ينزع الى الخلق بجنسيتها والانتظام في عداد آحادها فيطلب مشاركتها في الوحدة الحية بعد الوحدة المعنوية وهو نهاية ما يمكن تصوّره من الشواهد في هذا الباب وهذا الامر مما تنبهت له الامم الفاتحة من قديم واتخذته قاعدة تجري عليها في تقرير فتوحها وتوثيق سلطانها واثاء سورة المغلوبين اذا خربهم من

ناحيتها ظلم أو سامتهم شيئاً من ضروب الخسف وحسبنا شاهداً عليه ما هو
 جارٍ ليومنا هذا في الجزائر وتونس من البلاد العربية حيث أهل تعليم اللسان
 العربي في المكاتب لا بمقدار ما يتوصل به إلى تلاوة القرآن وجعل كل ما سوى
 ذلك باللغة الفرنسية حتى كادت العربية تناسي في تلك الاقطار ولم يبقَ
 منها الا ما يتداوله العامة من اللفظ المبذور والكلام السوقي وغابت عنهم محاسنها
 وعلومها وتوارى عنها وآدابها وعلى الجملة فانها صارت عندهم امرًا تافهًا لا معنى له
 ولا رغبة فيه وهي سائرة في طريق الاضمحلال بما تغلب عليها من العجمة
 وشيوعها على ألسنة اهل البلاد وذلك فضلًا عما يبهرم كل يوم من اقتدار
 الفاتحين وما يرون من آثار سطوتهم ونفوذ شوكتهم وضخامة ملكهم وما لهم من
 ضروب الثقتن في العلم والاختراع مما تعاضله قوسهم يوماً بعد يوم وعن قليل
 ستصبح هذه اللغة عندهم كأن لم تكن بالأمس ولم تكن شيئاً مذكورًا. ولذلك
 كان من اوجب الواجب في المحافظة على بقاء الأمة وصيانة الجنسية بينها احياء
 لغتها بين عامة اهلها وتكثير سواد اهل العلم منها والتجافي بها ما امكن عن لغات
 الاعاجم الا الخاصة الذين عليهم المعول في نقل علومهم اليها ونشرها بلقنا بحيث
 تلحق بهم في الحضارة دون الجنسية. وهذا انما يتم اليوم بأن تنهض الأمة
 بنفسها لهذا الامر الخطير ويقرّده عقلاء سراتها واهل العلم فيها لا يتكلمون
 في ذلك الا على انفسهم ولا يصدر عن الآ عن عزائمهم والا فان استنامتهم الى
 من سلم اليهم قياد العلم وتهذيب الأمة في القطر لا يند الا ضرباً من التفرير
 بمصلحتهم والإعانة على اضمحلالهم وما ظنك بقوم بعضهم مغلوب لسيطرة الاجنبي
 يعمل بما يؤمر اليه لا بما يراه وبعضهم متفاد لسلطان التعصب وهو هادم لاركان
 العلم من قواعد ما ذاهب برسوم الجنسية من اصلها مُفرق لهذه الشريحة الباقية

في لجّ لا يُعرف له دَرَكٌ ولا ساحل وبعضهم مقيمٌ في ظلال الجبل والأمة لا يميز الألف من الراء ولا التاء من الياء... ثم ايعلموا أن العاملين اللذين يتنازعان الأمة لهذا الوقت لكليها وجهٌ واحدة يلتقيان عندها وإن اختلف طريقهما وغرضٌ واحد يرميان إليه وإن تباين موقفهما ألا وهو استئصال أرومة الجنسية والذهاب بآثار الوطنية فإن استيقظوا لما أُرصد لهم وبادروا الأمر قبل موقعه والآفة لفتهم عن قليل ستسقط من عالم الأقلام وتُستبدل برطانة عجمية بل تصبح ألسنتهم أشبه بالسنة اصحاب الصرح وأشرائط الأمر بادية من الآن فليعتبروها وإذا مضى على هذا زمنٌ يسير بقيت اللغة محصورة في المساجد والمحاكم الشرعية ولم تجدها في المحادثات اليومية إلا على ألسنة اقوام من الفلاحين واهل البادية لا يُطلق اسم العربي إلا على شرادم من اولئك وبئس الخلف

وقد اطلنا في هذا المعنى حتى كدنا نخرج عن المقصود وما نحن في شيء مما انسقنا إليه في هذا الموضع ولا هو من اغراض هذه المجلة وإنما اوردنا ما اوردناه متابعة لمقتضى البحث وايضاحاً لما توخيناه من بيان خطر اللغة في الأمة ومنزلتها من الجامعة الجنسية والحديث ذو شجون ولذلك نترك بقية هذا المطلب لرصافئنا من اصحاب الجرائد السياسية يوقفونه حقاً من القول ويستنهضون الأمة للعمل به إن شئت اذ هو من خصائصها وهمها ونعود الى ما كنا فيه من الكلام على اللغة واستئناف الوضع فيها سداً لما طرأ عليها من مواضع الخل وهو ولا ريب من أحسن المباحث مركباً وأبعدها مطلباً وأغمضها آثاراً وأخفاها مناراً ومما لا ينبغي به ما عندنا من المادة التافهة والعلم الذر ولكننا سنجعل البحث فيه ذريعة الى ما توقعه من اقلام أئمة العلم في هذا العصر والله سبحانه ولي الاعانة والتوفيق

ستأتي البقية